يوم الموتى

(٢ نوفمبر ١٩٢٠)

أرضها
الى طيف تلك التي
عاد الجزء البشري منها
الى الكل العظيم

ريح خريفية تعصف في الاشجار فتنزع عنها الاوراق وتسفي التراب فتذره في الجو عجاجاً ، واشجان خريفية تشتد في مكامن النفس فتثير فيها تذكارات وتهيمن على تذكارات

اليوم تجرحني الاصوات والخطوات والنظرات وأرى كل حركة يأتيها الناس تمثيلاً ، كأنما الحكمة المثلى تدي في تكتم الصور المتوارية تحت صدرة القبول وفي مجموع الاشكال المتلائمة لحين ما من احكام البعث والنشور

اليوم عيد الموتى وهذا شهر الموتى . هذا شهر الكآبة المزدوجة : كآبة الحسرة والدموع عند الشعوريين وكآبة التأمل والتبحر عند الباحثين المتفكرين . للأموات من البشر يعيد المعيدون . وأنا أعيد لمن عاش ومضى وعلم ونسي ولما ظهر واختفى وأبرق وانطفأ ، أي لكيفيات الحياة المرئية والمجهولة جميعاً

اليوم عيد جميع الموتى

عيد العيون الجامدات والقلوب الساكنات والاوراق الذابلات والآمال الذاويات ، عيد شريف الانكسارات وذليل الانتصارات ، عيد آلهة ثكلت لها العباد ونحروا على هياكلها الاقدمة قرابين ثم قاموا يدكونها من على قوائمها ويحرقون معالمها ليدوسوا رمادها بأقدامهم الطاغيات ، وعيد مذاهب شيدت صروحها في مجاهل الغابات وعلى قمم الراسيات بل تجمد من دماء القلوب وتصلب من لهب العواطف ثم انبرى مؤمنو البارحة يصيحون بين جدرانها صياح الهادم الاثيم . عيد كل ما قدس من رمز ثم حقر وكل ما فوخر به من رأي ثم دحر . عيد مدنيات دوّن العلم ارتفاعها وانحدارها ومدنيات غوّر ذكرها في غاس التاريخ

وما زالت حية قاهرة بالارث في استعداداتنا وميولنا . عيد عوالم خبت انوارها في إطارها الفلكي وتطايرت غازاتها وتفتتت اجزاؤها تتفرقت في المدى الشاسعات لينضم كلٌّ منها إلى ما يجذبها من عنصر او كوكب . وشموس منيعة طالما بعثت بالنور والحرارة إلى انظمة جليلة فصغرت واياها في اضاءة الرهيبة صغوراً وليس من يلتفت لغيابها لان عين العلم وان تسلحت بالتلسكوب ضعيفة عاجزة ، والاكوان لاهية بانانيتها الحيوية ، مسوقة إلى تتميم دورتها المفروضة فلايستوقفها في سبيلها ما يلتهب من شمس ويتحطم من عالم ويحترق من سيار

بل اليوم عيدك ، ايتها المجرة العظيمة بما تراكم وتلازب فيك من ملايين الكواكب المتتابعة التكون والتحول ، وانت على هذه الضخامة لستر غير جزء من الخليقة الشاملة حيث تتعاقب الاكوان الضخمة فتملأ الفضاء الذي لا يُحدّ وتتجدّد في كل اتجاه على أبعاد لا يدركها قياس ، ثم تبلى وتختفي في ظلمات اللانهاية

* * *

اليوم عيد جميع الموتى

ولكن قبل ان يطير الفكر منا إلى ابراج خاويات وشموس متجلدات ، ما ذكرنا الموت إلاّ احتضنتكم قلوبنا ، أيها النازحون الراقدون . ما ذكرنا الموت الاّ سمعناكم متكلمين وخلنا كم باسمين وشعرنا بنبضات قلوبكم في راحات ايدينا ، فسألكم « اين انتم » فتجيب القبور « ها هم في حماي » . فتفرغ قلوبنا من عناقكم وراحاتنا من نبضات قلوبكم ولا يرن في مسامعنا غير تهدد الامس ولا تبصر عيوننا غير ما تبعثهُ من عبرات

مرتُ البارحة بين الاضرحة متمهلاً استنشق جثمان الماضي النسيم فتاقت أعضائي إلى الرقاد في ظل الغصون الحنونة . ما اكثر غرور الذين أقاموا هذه القبور المرمرية ونصبوا حواليها التماثيل الفنية ! عجّل المنايا يسوي من كبريائنا الصعود والهبوط اذ يلتقي بنا في معمل التحوّل العام فتعود أيادينا الدعية إلى إعلاء الاكام وحفر الحفرات تمييزاً لقبايل الاسماء ! وبدلاً من ان تبعث بنونا إلى باريهم على ما يريد تراثا نوثقهم بكثائف التظاهر والتبجح وتثقل كواهلهم بالجدران والتماثيل خوفاً من ان نكون بسطاء متواضعين ولو في أحزاننا لقلب !

ولكن أصوات الموتى تتشابه وراء القبور البسيطة الجليلة والقبور المزخرفة الحقيرة . هذا ضريح شهم عظيم سألتهُ حكاية نزيلهِ فقال : لقد عاش واحبَّ وتعذب وجاهد ثم — قضى

وهذا مضجع فقير بنزوي وراء المضاجع، سألتهُ عن ضيفهِ فاجاب : لقد عاش واحبَّ وتعذّب وجاهد ثم — قضى

وهذا قبر فتاة لم يرَ الناس منها غير اللطف والبسمات وفي قلبها الآلام والغصات ، وهو كذلك يقول : لقد عاشت واحبّت وتعذبت وجاهدت ثم — قضت

وهذا قبر امرأة صالحة اسعدت زوجها وابناءها جميعاً ، وصوتهُ يقول : لقد عاشت وأحبّت وتعذّبت وجاهدت ثم — قضت

وهذا قبر من كان عالةً على نفسهِ وعلى ذويهِ وعلى كلّ محيطهِ حتى من لقيه صدفة في طريقهِ ، وصوتهُ يقول : لقد عاش واحبَّ وتعذّب وجاهد ثم — قضى

وهذا قبر طفل وضيع لم يُحسب عمرهُ بغير الايام ، وهو يقول : لقد عاش واحبَّ وتعذب وجاهد ثم — قضى

هذه هي حكاية الموتى وهذه هي حكايتنا نحن اللاحقين بهم ،

هذه حكاية الموتى على الاطلاق ، حكاية الظالم والمظلوم ، والكبير والصغير ، والذكي والمعتوه ، والاحمق والحكيم ، صاحب القبر المرمري الذي لا تبلغ الهامات عتبتهُ وصاحب المضجع الترابي الذي تدوس هامتهُ الاقدام . كلٌّ منهم عاش مرغماً ، وأحبَّ مرغماً ، وتعذّب وجاهد بامكانهِ الفطري والاكتسابي ثم — دعا الردى فلبّى صاغراً

واذا تحوّلنا عن هذه المقبرة ذات الحدود الى مقبرة الخليقة التي لا حدود لها مجمعنا من الزهرة والشجرة والحيوان والانسان والشعب والجنس والمدنية ، ومن كل سيارٍ ومن كل شمس ومن كل نظام شمسي هذه اللازمة التي تأبى التغيير : لقد عاش بقوة الحياة التي كوّنتهُ وشكّلتهُ وأودعتهُ في فصائلها . ولقد احبَّ بقوة الجاذبية الشفيقة العنيفة التي تضمد جراح القلوب لتمزقها وتواسي اوجاع الارواح لتضنيها ، وتجلو للعقول اسراراً لتثقلها بغوامض الاسرار . ولقد تعذب لان العمر صعود وهبوط وغمر وتناقض وبين هذه المناقضات المحتمة يتفطر الفردُ في احتياجهِ الى التوازن والثبات . ولقد جاهد لان الجهاد وسيلة يرتقيها مرصلة

إلى الثبات والتوازن وهي لا توصل إلى غير نفسها، لو علم المأمون! لقد جاهد ضدّ العناصر، وضدّ الفصول، وضد الاجناس وضد الجماعات، وضد الاصطلاحات المتحجرة والمجازفات المتهورة، ضد الغنى والفقر معاً، ضد الجمال والقباحة وضد البله والذكاء، جاهد ضد الغرباء وضد الاعداء وضدّ الاصدقاء، وجاهد ضد أحبّ الاحباب، وكان اوجع جهوده ضد ذاته تلك الجهود التي تكسّر لولب القدرة وتبيده. بينا الجهاد ضد العالم الخارجي يعزّزه ويقويه. ثم عندما تحلبت القوى بالحياة والحبّ والعذاب والجهاد قضى — أي التحف باللغز الاعظم، واسدل على حقيقته الظاهرة حجاب الخفاء، وغاص في مغذية الكائنات ليتقمص في النار شرارة، وفي الهواء نسمة، وفي الماء قطرة، وفي التراب ذرّة. وما هي الذرّة؟ أهي مادة أم هي قوة؟ أهي فاعلة أم هي منفعلة؟ أهي بصيرة أم هي كفيفة؟ ولماذا تتجسم مع مثيلاتها لتشكل الصور ثم تحلها؟ أفي المادة كل وعود الحياة وكل قواها، أم في الحياة كل وعود المادة وكل قواها؟ ولماذا تتعاون الحياة والمادة حتى تصيرا في دماغنا إدراكاً، وفي جناننا عاطفة، وفي اعضائنا حركة، وفي لحاظنا نوراً، وفي محاجرنا دموعاً؟ ماذا تريد منا الحياة وماذا تبتغي المادة منا؟ ومتى تنتهي هذه الالعوبة السحرية التي تبتدئ بالاعتزاز ولا اعتزاز ينبيها؟

***

والآن اذ اسمع الرياح تعول وتندب، والاجراس تطنّ طنين الغم والكرب، والارغنون يعزف الحان التفجع والانتحاب، ثم تتراءى لي أودية وجبال زرعت فيها العظام منا واشتدّت الاعصاب وتبسط لخيلتي سهول ومروج تنفذت من اجسامنا وارتوت بدمائنا، وتضج حولي أصوات الباكين الحزانى وتتزاحم امام ناظري جميع مشاهد الفراق، فراق مرٍّ يحتمهُ الموت وفراق أمرّ تقضي به الحياة فأذوب وأتضاءل ثم أذوب حيال بحر الشقاء العام حتى البث ذرة واحدة متوجعة متلهفة متفجعة تتوق الى التلاشي والنسيان، اذ ذاك تنقشع عن عقلي حجب الجهل والانانية وتلقي بي يد الروح الاعظم في فضاء اللانهاية ويحملني جناحان قويان إلى حيث اجد الموت حدثاً عرضياً والفناء خيالاً زائلاً. اذ ذاك يزكو حياتي ويتعالى ويعظم فيتنشق هواء الحياة الواحدة السائدة في كل مكان

من أعماق اللجج الى اعالي الجبال، من نواة السلب المبعثرة في المادة الخرساء

الى نواة الايجاب الكامنة في بوارق الكهرباء ، من ذرة الرمل ، الى الشجرة المزهرة ، الى الهواء الملامس أفنانها ، الى طير سابحات تحت الغمام ، الى نتيت شموس تلبدن في حضن المجرة ، إلى أبعاد لا يرودها غير الخيال العظيم ، الى ما وراء ذلك من إطار الخليقة السامي ، الى كل نقطة من كل مسافة في كل مكان من كل زمان في كل أبدية تتموج حركة الحياة النضناض متتابعة متقطعة ، متفردة متنوعة ، متظاهرة متوارية ، متلاطفة متخاشنة ، متمهلة متضاعفة ، متشددة متعادلة ، أبدية أزلية سرمدية . صوتها العجيب يتراجع من حنجرة الى حنجرة ، ومن افق الى افق ، ومن عالم الى عالم ، ومن سكوت الى سكوت ، مولولاً مع الاعصار ، هامساً مع النسمات ، نادباً مع البحار ، مدمدماً مع العناصر ، متمتماً مع ثلاثمائة الف من اجناس الحشرات ، صامتاً مع جميع المكروبات والذرات ، آجاً مع المجهولات ، ملعلعاً مع الآلات ، حافاً في حفيف الافلاك ، داوياً بجميع النغام في ملايين ملايين اصوات الخلائق

تكسونا الحياة كرداء سحري لا تبلى خيوطه وتحضننا السماء فنحن فيها متيسون قبل الحياة وبعد الموت والجحيم والنعيم في نفوسنا يتناوبان . تغزونا الحياة سواء أفي الاندحار أم في الانتصار فنحن أبطالها ونحن ضحاياها سواء شئنا أم لم نشأ

ما الارض والبحار وأبعاد الافلاك سوى مدافن دهرية انما هي في الوقت نفسه معامل توليد وتكوين . نحن نخلد الحياة بفنائنا وهي تفنينا بخلودها ونحن ابداً كذلك حتى تنلج الشموس وتضمحل قوى العناصر وتتفكك عرى الاكوان سابحة في الفناء الانور ، في البقاء الاوحد ، في حضن الله

إذاً أعيد الموتى اليوم أم عيد الاحياء ؟

انما اليوم ، ككل يوم ، عيد الناموس الفرد الذي يمجن اشكالاً تبدعها يد الطبيعة العلماء يحبلها باليد الواحدة التي تدعى الموت ويقذف بها الى اليد الاخرى التي تدعى الحياة قطعاً ذات صور معينة . ولا يفتأ يستخرج الجديد من القديم ويدغم القديم في الجديد ليتم للاحقاب تعاقبها بالبشر والافلاك والزمن في مجاهل اللانهاية الخالدة

(مجّ)